

زيارة إياد مدني للأقصى في سياقها الفلسطيني والإقليمي:

تساؤلات مشروعة تبحث عن إجابة

أمجد أحمد جبريل

شهد يوم الخامس من يناير 2015، قيام الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي إياد مدني بزيارة المسجد الأقصى المبارك ، في تكرار لما قام به سلفه أكمل الدين إحسان أو غلو في 28/8/2013. ورغم حصول زيارات سابقة للأقصى تحت الاحتلال ، قام بها دعابة ورجال دين رسميون عرب (علي جمعة، الحبيب الجفري) ، فإن زيارة إياد مدني تبقى ذات دلالة أكبر ، فضلا عن خطورة توقيتها إذ جاءت في وقت عصيب تعيشه القدس وغزة المحاصرتين ، وتأتي أيضا في سياق فلسطيني وإقليمي ودولي بالغ التعقيد

وتطرح هذه الزيارة من ثم تساؤلات جوهرية بشأن عدة موضوعات ، منها : مصير بيت المقدس ، بل مصير قضية فلسطين برمتها في ظل محاولات مستمرة لتصفيتها وتدمير أبعادها الرمزية/الثقافية خصوصا ، ومفهوم التطبيع المباشر وغير المباشر مع الكيان الإسرائيلي بين التضييق والتقوس ، والتدخل بين الديني والسياسي في المنطقة العربية ، وأولويات القضايا الاستراتيجية للأمة في هذه الآونة في ظل غياب رؤية استراتيجية سليمة ، وموقع قضية القدس من هذه الرؤية والأولويات ، وواجب العرب والمسلمين وأحرار العالم تجاه هذه القضية في هذه المرحلة من هيمنة متغير "الحرب على الإرهاب" على الأجندة الإقليمية والدولية ، وطبيعة السياسات العربية والإسرائيلية والإقليمية والدولية ، وهي كلها أمور تندد بالخطر الداهم على بيت المقدس خصوصا ، وقضايا الأمة الاستراتيجية عموما .

وهي تساؤلات تجتهد هذه المقالة في طرحها أملًا في أن تثير التفكير في قضية القدس المحورية وتشابكاتها المتعددة ؛ سواء على الصعيد الفلسطيني ، أو العربي - الإقليمي ، أو الدولي ، أو المدني العالمي .

ستبدأ المقالة بعرض ملخصات هذه الزيارة وردود الفعل عليها ، ثم تناقش سياقها الفلسطيني والإقليمي ، ثم تنتقل إلى تحليل دلالات الزيارة واحتمالات تغير السياسة السعودية بشأن التطبيع مع الكيان الإسرائيلي ، قبل أن تنتهي بخاتمة تحمل أسئلة مستقبلية

أولاً- ملابسات الزيارة وردود الأفعال:

استهل الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي إياد مدني زيارته للأراضي الفلسطينية بزيارة رام الله؛ حيث التقى رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس في 4 يناير 2015. ومن هناك دعا المسلمين والعرب إلى زيارة مدينة القدس بعشرات الآلاف، وناشد شركات السياحة الفلسطينية والأردنية تهيئة الظروف للMuslims الراغبين في زيارة القدس وفلسطين، لتكون القدس عاصمة للسياحة الإسلامية في عام 2015 على حد وصفه^١.

أما في الخطوة الثانية من الزيارة، وبعد أداء الصلاة في مسجد قبة الصخرة والاستماع لشرح عن وضع الأقصى والاقتحامات المتكررة له، فقد صرخ إياد مدني بأن من حقه وحق كل Muslim القدوم إلى القدس والصلاة في المسجد الأقصى، وهي اللحظة التي حرمنا (أي المسلمين) منها طويلا.

كما أشارت بعض المصادر إلى أن مدني كان قد دعا في مايو 2014 جميع المسلمين لزيارة مدينة القدس والمسجد الأقصى والصلاة فيه، تأكيداً على هويتها الإسلامية ومواجهة سياسية التهويد الصهيونية^٢.

ويمكن هنا تسجيل عدد من الملاحظات على زيارة مدني للأقصى؛ أولها أنها حظيت بترحيب واضح من السلطة الفلسطينية ومسؤولي وزارة الأوقاف فيها، ومنهم مدير الأوقاف الإسلامية في القدس عزام الخطيب، ومدير المسجد الأقصى عمر الكسواني، وزعيم شؤون القدس ومحافظ المدينة عدنان، ومفتى القدس والديار الفلسطينية محمد حسين.

^١ - "أمين التعاون الإسلامي يصل بالأخضر ويُعتبر زيارته حقا"، الجزيرة نت 2015/1/5. على الرابط:

[/أمين-التعاون-الإسلامي-يصلـيـبالأخضرـويـعتبرـزيارتـهـحقـا](http://www.aljazeera.net/news/arabic/2015/1/5-%D9%81%D9%8A%D9%85%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%86%D9%8A-%D9%8A%D8%B5%D9%84%D9%8A-%D8%A8%D9%84%D9%82%D9%87%D9%8A%D9%87%D9%8A-%D8%AE%D9%82%D9%86)

^٢ - "زيارة الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي إلى الأقصى تثير انتقادات"، موقع المسلم 1436/3/14. على الرابط:

<http://almoslim.net/node/222810>

ويجب التذكير هنا أيضاً أن هذه المواقف ليست وليدة اللحظة، فهي تتطور في سياق معين؛ إذ "سبق أن دعا رئيس السلطة محمود عباس في مؤتمر القدس الأول الذي عُقد في قطر 25 فبراير 2012، العالم العربي بـإسلاميّه ومسيحيّه للتوجه إلى القدس المحتلة والصلاة فيها، معتبراً ذلك شكلاً من أشكال النضال ودعم صمود المقدسيين وترسيخ هوية المدينة المستهدفة بالاستئصال، فضلاً عن تذكير المحتلّي ن بأن قضية القدس هي قضية كلّ عربي ومسلم ومسيحي". كما استشهد عباس بعدد من الأحاديث الشريفة التي تحض على زيارة المسجد الأقصى وشد الرحال إليه؛ فقد كانت مدينة القدس تحت حكم الرومان حين قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى"، وأن أحداً من فقهاء المسلمين لم يحرم زيارة القدس حين كانت تحت حكم الصليبيين^٣.

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالمواقف الفلسطينية والعربيّة المنتقدة لزيارة مدني للأقصى تحت الاحتلال؛ إذ اعتبر رئيس الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر رائد صلاح أن الزيارة هي عثرة مؤلمة وتطبيع غير مباشر مع الاحتلال الإسرائيلي، وأن مردودها يصب في مصلحة الاحتلال الإسرائيلي ويكرس السيادة الباطلة على القدس والمسجد الأقصى المبارك^٤.

كما عبر المتحدث باسم حركة حماس سامي أبو زهري عن رفض حركته لدعوة إياد مدني، المسلمين في أرجاء العالم لزيارة القدس والمسجد الأقصى ، لأنها تعتبر ذلك خدمة مجانية

^٣ - وحدة تحليل السياسات في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، "زيارة القدس تحت الاحتلال: دعم للصمود أم تطبيع؟" ، 13/6/2012. على الرابط:

<http://www.dohainstitute.org/release/05a5eef4-27b6-4701-a897-7666eb1cf26>

^٤ - "رائد صلاح: زيارة أمين التعاون الإسلامي للقدس تطبيع" ، الجزيرة نت 6/1/2015. على الرابط:
<http://www.aljazeera.net/news/arabic/2015/1/6/برائد-صلاح-زيارة-أمين-التعاون-الإسلامي-للقـدس-تطـبـيع>

لإسرائيل وتطبيع معها، وأن المطلوب هو شئ آخر، ألا وهو دعم صمود المقدسيين وبذل الأموال لحفظ الأقصى والمقدسات، وليس التطبيع مع الاحتلال^٥.

أضف إلى ذلك المواقف العربية والإسلامية غير الرسمية، التي انتقدت زيارة مدنى للأقصى وهو تحت الاحتلال الصهيوني ، ومنها: الأزهر، والكنيسة الأرثوذكسية المصرية، وجامعة الإخوان المسلمين بالأردن، والأمين العام الأسبق لحزب جبهة العمل الإسلامي في الأردن اسحق الفرحان ، وزعيم الداخلية اللبناني الأسبق بشاره مر هج، وأمين عام الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين علي القراء داغي^٦.

أما الملاحظة الثالثة فتعلق بالموقف الإسرائيلي من زيارة إيد مدنى للأقصى . وقد يعتبر البعض ما تعرض له مدنى من تعطيل إسرائيلي لمدة ساعتين على حاجز حزمه بمدخل مدينة القدس، ثم ذهابه إلى رام الله قبل أن يعود للمسجد الأقصى برفقة السفير الأردني ، هو دليل على رفض سلطات الاحتلال لهذه الزيارة، لكن ذلك ليس صحيحا ، لأن الإسرائيليين يريدون

^٥ - "حماس تجدد معارضتها لزيارة العرب والمسلمين للمسجد الأقصى "، الموقع الإلكتروني لصحيفة القدس العربي 6/1/2015. على الرابط:

<http://www.alquds.co.uk/?p=275246>

ولمزيد من التفاصيل حول موقف حركة حماس راجع: "حماس تعارض إقامة علماء مسلمين بإيابحة زيارة المسجد الأقصى، أمين لجنة شؤون القدس أكد أن زيارة المدينة المقدسة واجبة" ، الشرق الأوسط 2014/5/2، العدد 12939. على الرابط:

http://classic.aawsat.com/details.asp?section=4&article=770551&issueno=12939#.VKz_m_YVAu4

^٦ - راجع المصادر الآتية:

-"أمين التعاون الإسلامي يصل إلى الأقصى ويغادر زيارته حقا" ، الجزيرة نت، مصدر سابق

-"زيارة الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي إلى الأقصى تثير انتقادات" ، موقع المسلم، مصدر سابق.

-استنكار ورفض عربي وإسلامي لزيارة أمين منظمة التعاون الإسلامي للقدس، موقع وطن 6/1/2015. على الرابط:

<https://www.watan.com/news/1/3819>

خلق انطباع بصعوبة الزيارة وكأنهم يقدمون تنازلاً كبيراً ، وذلك لرفع أسهم من يقوم بها وتجميله أمام المواطنين العرب كأنه يقوم بعمل نضالي لا ترضى عنه إسرائيل

لكن التحليل الأعمق أو الأبعد من الحدث المباشر يشير إلى عكس ذلك تماماً؛ فإسرائيل ترحب وتتحمس لزيارات المسؤولين العرب للقدس تحت الاحتلال، "و خاصة من الدول العربية التي لا تقيم معها اتفاقيات سلام، حتى لو حملت هذه الزيارات بعدها تضامناً في البداية . . . فما يهم سلطات الاحتلال الإسرائيلي من هذه الزيارات هو كسر الحاجز النفسي المهم بزيارة إسرائيل، بعدها قد تتتحول العديد من الزيارات التطبيعية لمسؤولين عرب متسلحين في موضوع التطبيع والعلاقات مع إسرائيل – والذين يتجنبونها مخافة انتقاد الرأي العام العربي – إلى زيارات تضامنية، مفهومة ومبررة حين تعرج هذه الشخصيات للصلة في المسجد الأقصى أو كنيسة القيامة. وقد يسهم تكرار هذه الزيارات وتوادرها في شرعة التعامل مع الاحتلال في قضايا السياحة، والاقتصاد، وتكون بذلك مقدمة للتطبيع الأعم والأوسع" ^٧.

ثانياً- تحليل الإطار العام لزيارة مدني للأقصى: السياقان الفلسطيني والإقليمي

أ-السياق الفلسطيني:

ربما لا يكون مصادفة أن يقوم أمين عام منظمة التعاون الإسلامي بزيارة للأقصى، في سياق فلسطيني مأزوم وضاغط يهدف إلى ابتزاز تنازلات فلسطينية جديدة ، خصوصاً من قطاع غزة. ونحن نلاحظ كيف يتعرض أهل غزة حالياً لأقصى الظروف المعيشية في ظل مناخ الشتاء البارد والبيوت المهدمة وضعف إمكانيات الدفاع المدني الفلسطيني في غزة ، دون أن ننسى أيضاً كيف يُتكمّل حصار غزة وحركة حماس، ويجري توسيع المنطقة العازلة ربما لتشمل مدينة رفح المصرية بكمالها ، وكيف يجري تعطيل إعادة إعمار غزة، بعد أن قدمت نموذجاً مشرفاً في الصمود في وجه ثلاثة حروب إسرائيلية مجنونة، وأخرها صيف 2014، ناهيك طبعاً عن العدوان اليومي الذي لا يتوقف بحكم طبيعة الاحتلال وعنصريته تجاه شعب غزة من الصيادين والمزارعين والتجار وعامة الناس وبسطائهم.

^٧ - وحدة تحليل السياسات في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، "زيارة القدس تحت الاحتلال: دعم الصمود أم تطبيع؟"، مصدر سابق.

أضف إلى ذلك ما نراه من التضييق على المقاومة السلمية في الضفة الغربية، واغتيال الوزير زياد أبو عين - رئيس هيئة مكافحة جدار الفصل العنصري - في 10 ديسمبر 2014، الذي برأت المحكمة الإسرائيلية مؤخرا الجندي الذي قام بخنقه أمام عدسات المصورين.

ورأينا أيضاً كيف تم إجهاض مبادرة السلطة الفلسطينية بالذهاب إلى مجلس الأمن ، حيث استخدمت واشنطن نفوذها المعروف لمنع اكمال تسعه أصوات مؤيدة للمشروع العربي (الذي قدمته الأردن باسم المجموعة العربية) في مجلس الأمن؛ إذ كثفت الولايات المتحدة ضغوطها في الساعات الأخيرة قبل التصويت، رغم تأكيدات فلسطينية وعربية بتوفير هذه الأصوات التسعه، فيما يعكس مجدداً مستوى الارتجالية والتخبط في الدبلوماسيات والسياسات الخارجية العربية في هذا الصدد، التي كان يمكنها تفادي هذا المأزق بانتظار دخول ماليزيا وفنزويلا إلى المجلس بعد أيام، وهي من الدول المؤيدة للحق الفلسطيني والعربي.

ولعل مما يعكس هذا الارتباك والتخبط الدبلوماسي بين لدى الفلسطينيين والعرب، هو التصريحات المعاندة بإمكانية العودة إلى مجلس الأمن قريباً، لإعادة طرح مشروع إنهاء الاحتلال، ربما بعد أن تحصل فلسطين على عضوية محكمة الجنائيات الدولية بحلول مطلع أبريل 2015.

بيد أن الأبلغ من هذا كله، هو أن زيارة مدنى تتم في سياق تصعيد إسرائيلي /أمريكي /عربى ضد شخص رئيس السلطة محمود عباس واتهامه بأنه يقود تحريضا دبلوماسيا على إسرائيل في المحافل الدولية؛ إذ يتزايد الحديث في هذه الآونة عن إمكانية أن يحل محمد دحلان محله بعد أن التقى في القاهرة بالرئيس المصري للباحث بشأن أوضاع غزة ، بدون أن يكون لدحلان أية صفة رسمية فلسطينية بعد أن تم فصله من حركة فتح . بما يعني أن زيارة مدنى ربما تحمل بعدها تصامنها مع عباس، وربما تفضيلا سعوديا لبقائه، على عكس التوجهات الموجودة في الإمارات ومصر.

بـ-السياق الإقليمي:

ربما لا يكتمل فهم سياق زيارة إياد مدني للأقصى، وتحليل تداعياتها، دون نظرية فاحصة للتطورات التي تحدث في الإقليم، وبالذات في سياسة المملكة العربية السعودية تجاه هذه

التطورات، التي يجب التركيز على فهم دورها الجديد /القديم كونها تشكل قاطرة للدول الخليجية، فضلاً عن كونها أهم ركائز استقرار النظام العربي القديم الذي يتربّح حالياً، رغم ازدهار الثورات المضادة التي تحاول إعادة إحيائه لا سيما في شق التعاون الدائم مع المحور الأمريكي/ الإسرائيلي، ضد قوى التغيير في المنطقة، وفي مقدمتها تركيا و قطر والحركات السياسية الإسلامية المعتدلة، ودائماً بهدف إجهاض مساعي هذه الأطراف لإعادة رسم توازنات المنطقة العربية.

ولدينا في شق التطورات الإقليمية ثلاثة ملامح كبيرة؛ الملمح **الأول** يتعلق بالانشغال الإقليمي عن قضية فلسطين والقدس وتراجعها الملحوظ في الأجندة العربية/ الإقليمية. **والثاني** يتعلق بالمحاولات الحثيثة لإعادة تشكيل النظام الإقليمي الجديد في المنطقة ، عبر "الحرب على الإرهاب"، بما تعنيه من حرب على الحركات الإسلامية السياسية، خصوصاً منذ منتصف عام 2013 (لا سيما حركة الإخوان المسلمين)، وكذلك الحرب الصريحة على الحركات الإسلامية العنيفة (وخصوصاً تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش").

أما الملمح **الثالث** فهو عمليات استعراض القوة الممزوجة بالدعائية المكتفة وشن الهجوم الدبلوماسي، وتوظيف استخدام القوة العسكرية والمناورات العسكرية التدريبية لتحسين المكانة الإقليمية، والتي تنخرط فيها كل من إيران والكيان الإسرائيلي بشكل خاص ، ودائماً بهدف إجهاض الثورات العربية وعرقلة مساعي التغيير في المنطقة

بالنسبة للملمح الأول الخاص بالانشغال الإقليمي عن قضية فلسطين والقدس، فلربما لا يعبر عنه ما هو أفضل من إخفاق السلطة الفلسطينية في عقد قمة لمنظمة التعاون الإسلامي من أجل القدس؛ إذ دعا رياض المالكي، وزير الخارجية الفلسطيني، منظمة التعاون الإسلامي إلى تحمل مسؤولياتها تجاه مدينة القدس المحتلة، والدفاع عنها وإغاثة أهلها. وكشف المالكي أن الفلسطينيين قدموه طلباً أواخر نوفمبر 2014 لعقد قمة طارئة لمنظمة التعاون الإسلامي من

أجل القدس، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحصيل موافقة 29 بلدا لاستيفاء النصاب القانوني اللازم لانعقاد المؤتمر^٨.

هذا رغم كل الحملة الصهيونية التي تتعرض لها مدينة القدس، والتي تسارعت وتيرتها بشكل جنوني قبيل حرب غزة الأخيرة الصيف الماضي، وب مجرد توقفها، ولا سيما منذ أكتوبر ٢٠١٤.^٩

^٨ - فادي أبو سعدي، "فلسطين تفشل في الحصول على النصاب القانوني لعقد قمة طارئة لـ"التعاون الإسلامي" لأجل القدس"، القدس العربي 2014/12/24. على الرابط:

<http://www.alquds.co.uk/?p=269493>

^٩ - حول تصاعد الممارسات الإسرائيلية في القدس في النصف الثاني من عام 2014، راجع المصادر الآتية: داود كتاب، "انتفاضة شغافاط تكشف غياب قيادة مقدسية" ، القدس العربي 9/7/2014. على الرابط:

<http://www.alquds.co.uk/?p=190446>

-تشديد القيود على دخول المسلمين إلى الأقصى، عشية دعوات يهودية لاقتحامه لمناسبة عيد العرش "، الأيام (رام الله) 2014/10/8. على الرابط:

<http://www.al-ayyam.com/article.aspx?did=248560&date=>

-متطرفون يهود يقتحمون الأقصى ومواجهات عنيفة تسفر عن إصابة 30 فلسطينيا، الحكومة الأردنية : سنتعامل بكل حزم مع التصعيد الإسرائيلي تجاه الأماكن المقدسة "، الشرق الأوسط 2014/10/14. على الرابط:

<http://classic.aawsat.com/details.asp?section=4&article=790640&issueno=13104#.V-DyHWPYVAu4>

-وائل قنديل، "تهويد الأقصى ثمنا لإعمار غزة؟" ، العربي الجديد 2014/10/18. على الرابط:

<http://www.alaraby.co.uk/opinion/32b98264-bd2d-40e9-9846-5245622354c0>

-محمد حسين أبو العلا، "الأقصى... محاذير مستقبلية" ، الحياة 2014/10/18. على الرابط:

<http://alhayat.com/Opinion/Writers/5128706>/الأقصى---محاذير-مستقبلية

أما الملمح الثاني الخاص بالمحاولات الحثيثة لإعادة تشكيل النظام الإقليمي الجديد في المنطقة، وربما يكون أهم مفاتيح تحليل وضع الإقليم، فهو الحرب الجارية على الحركات الإسلامية السياسية، خصوصاً منتصف عام 2013. وهي الحرب التي تتكشف بالتوسيع عن التعاون بين الدول العربية المعتدلة وإسرائيل في مكافحة الإسلام السياسي السلمي والمقاومة.

ولعل من أهم أوجه هذا التلاقي بين السعودية والكيان الإسرائيلي هو استخدام فزاعة الحركات الإسلامية وتحريض دول العالم على ضرورة إدراجها - بشقيها المعتدل والراديكالي - في نطاق الحرب الدولية على "الإرهاب" ولوائح الإرهاب الدولية والوطنية وثمة أمثلة عديدة على

-هنادي قواسمي، "القدس في 2014: تصاعد اقتحامات الأقصى ومخطلات التهويد" ، العربي الجديد 2015/1/1 على الرابط:

<http://www.alaraby.co.uk/politics/3c7f7cc3-e152-4120-90b6-bf835914ff9d>

على الراطِنْ: فادي أبو سعدى، "إحباط محاولتين لإطلاق طائرة صغيرة فوق الأقصى" ، القدس العربى 19/1/2015.

<http://www.alquds.co.uk/?p=281644>

- ثمة شراكة مصالح الأمر الواقع بين السعودية وإسرائيل ؟؛ بعد إزاحة حسني مبارك عن رئاسة مصر، بقيت السعودية هي الدولة العربية الوحيدة القادرة على لعب دور رئيس في التصدي للنفوذ الإيراني في المنطقة، خصوصاً في ظل تراجع مكانة الولايات المتحدة الأمريكية . وهذا يعني للباحثين الإسرائيليين أن هناك شراكة استراتيجية غير مباشرة بين إسرائيل وال سعودية في كل ما يتعلق بالتصدي لإيران . إلى جانب أن كلتا الدولتين معنية بـألا تؤدي أحداث الربيع العربي إلى تغيير الواقع الاستراتيجي في المنطقة، بما يضر بمصالحهما". انظر: صالح النعامي، "العقل الاستراتيجي الإسرائيلي : قراءة في الثورات العربية وانتشار لمجالاتها"، الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، وبيروت : الدار العربية للعلوم ناشرون، أوراق الجزيرة (30)، 2013، ص 29-30.

نحاج إسرائيل في تحريض الغ رب على الحركات الإسلامية المعتدلة، وحركة الإخوان المسلمين تحديداً^{١١}.

"ويرى الجنرال عاموس يدلين - رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية السابق - أن قرار السعودية بتصنيف الإخوان المسلمين منظمة إرهابية يشكل تضامناً مع مصر في موقفها، ويحسن البيئة الاستراتيجية لإسرائيل بشكل غير مسبوق. ويمكن فهم ما قاله يدلين في ضوء التقارير الصحفية التي أشارت إلى "تقاطع المصالح" بين بعض دول الخليج وإسرائيل بعد انقلاب 3 يوليو في مصر . والمتمثل في الموقف المعادي للحركات السياسية الإسلامية؛ فقد ذكرت صحيفة وول ستريت جورنال أن الم صالح المشتركة لكل من إسرائيل وال سعودية والإمارات جعلت جهودها في مصر تصب في اتجاه مشترك لتعزيز الانقلاب في مواجهة الإخوان، لتشكيل محور المنطق axis of reason، رغم عدم وجود تنسيق مباشر بين إسرائيل وهاتين الدولتين . إلا أن صحيفة جيروزاليم بوست في 3/1/2014 نشرت تقريراً ليوسبي ميلمان - المختص بالشئون الاستخبارية وقضايا الأمن القومي - تحدث فيه عن دور السفير السعودي في واشنطن في نسج علاقات سرية مع إسرائيل، من خلال لقاءات عقدتها السفير مع قادة المنظمات اليهودية في واشنطن، ومن خلال نقل رسائل وتنسيق ولقاءات مكثفة تمت بين مستويات تنفيذية في كل من الرياض وتل أبيب^{١٢} .

^{١١} - انظر: محسن صالح، "الأهداف والمصالح الإسرائيلية في النظام العربي" ، في: مجموعة مؤلفين، التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية ، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014، ص 485؛ عبد العليم محمد، "اتجاهات السياسة الإسرائيلية إزاء الثورة المصرية ومستقبل العلاقات المصرية-الإسرائيلية" ، في : مجموعة مؤلفين، الثورة المصرية: الدوافع والاتجاهات والتحديات ، بيروت : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012، ص 523 - 554؛ طارق فهمي، "الرؤية الإسرائيلية للثورات العربية" ، الديمقراطية (تصدر في القاهرة عن مؤسسة الأهرام) ، العدد 46، أبريل 2012، ص 97-108؛ بنديتا بيرتي، "إسرائيل والربع العربي: المواقف والاستجابات تجاه الشرق الأوسط الجديد" ، في: مجموعة باحثين، الحكومات الغربية والإسلام السياسي بعد 2011 ، دبي: مركز المسار للدراسات والبحوث، 2013، ص 335-372.

^{١٢} - نقرأ عن: محسن محمد صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2012-2013، بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014، ص 159-160.

أما الملمح الثالث فهو عمليات استعراض القوة الممزوجة بالدعائية المكثفة وشن الهجوم الدبلوماسي، وتوظيف استخدام القوة العسكرية والمناورات العسكرية التدريبية لتحسين المكانة الإقليمية، والتي تنخرط فيها إيران والكيان الإسرائيلي بشكل خاص، ودائماً بهدف إجهاض الثورات العربية وعرقلة مساعي التغيير في المنطقة

ومن الواضح أن الدولتين تمارسان دوراً واضحاً في الضغط على الولايات المتحدة والقوى الغربية لكي تتم الاستجابة لطلباتهما أو حتى اشتراطاتهما، على حساب الدول العربية والقضايا العربية بشكل عام^{١٣}.

ثالثاً - دلالات الزيارة واحتمالات تغير السياسة السعودية بشأن التطبيع مع الكيان الإسرائيلي:

إن موقع السعودية من النظام الخليجي والعربي ومنظمة التعاون الإسلامي ، يفرض التساؤل عن موقع زيارة إياض مدني للأقصى، من مسألة احتمال تغير السياسة السعودية تجاه قضية فلسطين وقبول الرياض التطبيع غير المباشر مع الكيان الإسرائيلي ثقافياً ودينياً، حتى لو كان تحديد لحظة حصول هذا التغيير يبقى جديلاً . فهل حصل التطبيع فعلاً؟ أم هو بسببه إلى أن يحدث مستقبلاً؟ وهل التطبيع الثقافي والديني سيؤدي إلى تطبيع سياسي في النهاية؟

وهل ما يحدث هو نهاية مشروع الاعتدال العربي ومدرسة "الاشتباك السياسي مع إسرائيل" ، وهل تخوض النظام العربي الرسمي ومنظمة التعاون الإسلامي فولد ا هذا الفار (التطبيع من مدخل زيارة الأقصى، والسكوت على تصفية المقاومة في غزة وإحكام الحصار عليها)؟ أم أن زيارة إياض مدني للأقصى تحت الاحتلال مجرد إشارة هدفها الصورة الرمزية واستقطاب اهتمام وسائل الإعلام ، لأن السياسات العربية عاجزة عن تقديم أي شيء حقيقي (أي غير

^{١٣} - لمزيد من التفاصيل راجع : أَمْجَدْ جَبَرِيلْ، "كِيفَ يُمْكِنْ أَنْ يَضْغُطَ الإِقْلِيمِيُّ عَلَىِ الْمَوَاقِفِ الْأَمْرِيكِيَّةِ تجاهِ الْمَنَاطِقِ؟ وَمَا الْإِنْعَكَاسَاتُ عَلَىِ مَصْرِ؟" . مَرْكَزُ الْحَضَارَةِ لِلدراسَاتِ السِّياسِيَّةِ . عَلَىِ الرَّابِطِ :

رمزي) للأقصى ولمدينة القدس وللمقدسين المرابطين على أرضهم؟ ومن سيدفع ثمن هذه الأخطاء السياسية الفادحة؟ هل هو مؤسسات النظام العربي ومنظمة التعاون الإسلامي؟ أم النظم العربية والإسلامية التي تدفع بكل هذا التسطيح إلى قضية القدس فتكون النتيجة هي التخاذل عن نصرة الأقصى والمقدسين الصامدين؟ . وأليست هذه السياسات هي المحصلة النهائية لخطاب التسوية العربي (السلام خيار العرب الاستراتيجي)؟ وهل يؤذن ذلك بسيادة نظرة عربية جديدة لإسرائيل، تقوم على التعايش مع الاحتلال والاكتفاء بزيارات رمزية إلى الأقصى تنقل النقاش من قضية من له السيادة عليه، إلى مجرد حق الزيارة والعبادة؟ ولماذا تتسامح إسرائيل مع زيارات المسؤولين العرب إلى الأقصى، لكنه تشدد مع زياره أهل الضفة وغزة لعين المكان؟

على أي حال، فإن البعض يرى أن شيئاً ما، يبدو وكأنه تغير في النظرة العربية لإسرائيل في العقد الأخير، على نحو ما كشفت حرب لبنان صيف 2006، التي كرست المكانة الإقليمية لإيران وحلفائها في المنطقة العربية، مما جدد الاهتمام بإعادة طرح مبادرة السلام العربية بعد تلك الحرب. هذا الاهتمام نبع من "بروز مصلحة مشتركة بين الدول العربية المعتدلة وبين الكيان الإسرائيلي بخصوص احتواء الطموحات الإيرانية الإقليمية. ورغم أن المسؤولين السعوديين لم يكونوا على استعداد لعقد مباحثات مباشرة أو مفتوحة مع الإسرائيليين، فإن الرياض استمرت في الاضطلاع بدور واضح في تشجيع التوصل إلى سلام عربي - إسرائيلي لتعزيز مكانة السعودية على الصعيدين الإقليمي والدولي. كما وافقت الرياض على المشاركة في اجتماع أنابوليس الذي دعت إليه الإدارة الأمريكية أواخر 2007^{١٤}.

وربما يرى آخرون أن التغير في السياسة السعودية تجاه مسألة التطبيع الثقافي/الديني مع الكيان الإسرائيلي، ربما يكون قد بدأ منذ مؤتمر نيويورك لحوار الأديان الذي انعقد في نوفمبر عام 2008. وقد شهدت وقائع المؤتمر إلقاء رئيس الكيان الصهيوني آنذاك شيمون بيريز خطاباً في حضور العاهل السعودي؛ إذ تمنى بيريز أن يسود صوت الاعتدال في المنطقة، كما

١٤

Gawdat Bahgat, "Saudi Arabia and The Arab– Israeli Peace Process", **Middle East Policy**, Vol. XIV, No.3, Fall 2007,p.58.

تعكسه السعودية بمبادرتها للسلام. كما حدث تجاذب في التصريحات بعد المؤتمر بين وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسبيبي ليفني، وإن كان البعض اجتهد في نفي شبهة التطبيع بين السعودية والكيان الإسرائيلي تحت دعوى أنه لم تحدث أية مصافحات، كما أن المؤتمر كان برعاية الأمم المتحدة وليس السعودية؛ إذ تتطلع الأمانة العامة للأمم المتحدة في مثل هذه الحالات بإجراءات التنظيم وتوجيه الدعوات وأماكن جلوس الوفود والمسؤولين وغير ذلك من إجراءات^{١٥}.

والواقع أن مسار تطور السياسة السعودية في طرح مبادرة السلام العربية عام 2002، ثم الانخراط في مسار حوار الأديان منذ 2008 يطرح سؤالاً مهماً عن علاقة ذلك بأوضاع النظام السعودي داخلياً؛ فهل بدأ الاستعداد السعودي لمرحلة التطبيع الرسمي عبر زيارة إياض مدني للأقصى؟ وهل هي إشارة سعودية للولايات المتحدة بأن السعودية مستعدة لتقديم تنازلات في التطبيع مع إسرائيل، مقابل استمرار الدعم الأمريكي للملك القائم في السعودية؟ وهل هذا المنطق يشبه ما حدث في مبادرة الأمير عبد الله للسلام عام 2002؟

وعلى صعيد علاقة طرح مبادرة السلام العربية بالداخل السعودي، يعتقد البعض بأن تقديمها جاء بعدهما واجه الحكم السعودي أخطر تحديًّا منذ تأسيس المملكة العربية السعودية عام 1932، وكان هذا الخطر مكوناً من ثلاثة عناصر؛ أولها تنامي التوجهات المعادية للرياض داخل الكونغرس الأمريكي، والتي أخذت تكيل الاتهامات للنظام السعودي وببيته الداخلية التي أوجدت التربة الخصبة لنمو الحركات الجهادية العنيفة ولذا بدأ الكونغرس يضغط على الإدارة لمطالبة الأسرة السعودية ببدء عملية إصلاح سياسي وتعليمي، وتمكين الأمراء السعوديين الشباب الذين تلقوا تعليمهم في الجامعات الأمريكية من تولي مهام قيادية في الحكومة. أما العنصر الثاني فهو تنامي نشاط الجماعات الجهادية التي أخذت تنفذ عمليات إرهابية داخل

^{١٥} - لمزيد من التفاصيل حول الجدل العربي حول الانخراط السعودي في مسار حوار الأديان وتطور السياسة السعودية في هذا الاتجاه، راجع : أمجد أحمد جبريل، "مبادرة السعودية للحوار بين الأديان : من مؤتمر مكة إلى مؤتمر نيويورك 2008"، في : وسام الضويني (محرر)، حوار الأديان: مراجعة وتقدير، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2011، ص 141-180.

السعودية نفسها. وأخيراً تمت العنصر الثالث في تنامي الغضب الداخلي لدى أعداد متزايدة من المثقفين ونخب الطبقة الوسطى السعودية^{١٦}.

ووفقاً لهذا الاجتهد نفسه فإن طرح المبادرتين السعوديتين للسلام عام 1981 وعام 2002 إنما يرتبط بتصاعد أزمة الشرعية والتحديات الداخلية والخارجية أمام نظام الحكم السعودي . ومنذ تأسيس المملكة العربية السعودية في ثلثينيات القرن العشرين ارتبطت سياستها تجاه الصراع العربي- الإسرائيلي بتطور الأوضاع الداخلية فيها (ولا سيما مسألة الشرعية) عبر أربع مراحل؛ ففي المرحلة الأولى كانت أوضاع البلاد هادئة وآمنة بفضل بدايات تزايد العقود والاكتشافات النفطية ومكانة الأسرة السعودية التي نجحت في توحيد البلاد تحت قيادتها، مما انعكس على تبني الرياض مواقف أق رب إلى التشدد في سياستها تجاه الصراع العربي- الإسرائيلي ، وإن كانت في عمومها مواقف لفظية . أما في المرحلة الثانية التي بدأت بالتزامن مع اندلاع ثورة اليمن عام 1962 ، فلم يعد بإمكان الرياض أن تعزل نفسها عن رياح التغيير التي أخذت تهب على الم نطقة، خصوصاً مع نمو التعاطف الشعبي العربي مع المقاومة الفلسطينية، ثم مع الإجماع العربي على دعم مصر وسوريا في حرب 1973 ، وهو ما حدا بالملك فيصل بن عبد العزيز صاحب الرؤية الاستراتيجية إلى اتخاذ موقف متشدد ضد المعسكر الأمريكي- الإسرائيلي وبادر إلى تطبيق حظر نفطي ضد مؤيدي إسرائيل من الدول الغربية. أما في المرحلة الثالثة فقد تبنت الدبلوماسية السعودية دوراً نشيطاً في الصراع العربي- الإسرائيلي عبر تقديم مبادرة فهد للسلام عام 1981 ، وتزامن ذلك مع اندلاع الثورة الإسلامية في إيران وظهور الحركات الإسلامية المعادية للولايات المتحدة . وهما التحديان اللذين عززا الاتجاه المؤيد لتوطيد العلاقات السعودية- الأمريكية وتطويرها إلى تحالف استراتيجي كامل "يشمل الميادين السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية لكي يتمكن النظام السعودي من التصدي لهذين التحديين، وهذا هو سياق ظهور مبادرة فهد للسلام التي عكست مرونة الرؤية السعودية في الصراع العربي- الإسرائيلي، بهدف تعزيز العلاقات مع واشنطن، وهو اتجاه قاده الأمير بندر بن سلطان الذي تولى منصب السفير السعودي لدى الولايات

^{١٦} - بتصرف عن: د. فضل مصطفى النقيب، أمراء السلام ! قراءة في "نهج الاعتدال العربي" ، الكتب وجهات نظر، العدد 122 ، مارس 2009 ، ص 8.

المتحدة لمدة عقدين تقريباً . أما في المرحلة الرابعة التي بدأت بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، فقد بلغ التهديد ذروته سواء على الصعيد الخارجي أم الداخلي كما أشرنا، مما دفع السعودية لكي تلعب دوراً قيادياً في تبني عملية التسوية وفق الرؤية الأمريكية^{١٧} .

وعلى أي حال ، فإن مسألة التطبيع غير المباشر بين الكيان الإسرائيلي والدول العربية تؤكد مضمون استراتيجية إسرائيل طويلة النفس في تطبيع العلاقات مع الدول العربية، باستخدام المداخل الثقافية والدينية والسياحية والاقتصادية عندما يتذرع تسجيل اختراقات في التطبيع السياسي^{١٨} .

وهي سياسة بارعة في استخدام أدوات مختلفة لتنفيذ سياساتها الخارجية^{١٩} ، وهو ما انعكس بشكل خطير على الموقف السعودي من حرب غزة الأخيرة صيف 2014، الذي نأى بنفسه عن أي تأييد للمقاومة الفلسطينية ولو حتى على الصعيد الإعلامي، وعاد للذكير بالمبادرة العربية للسلام، في اصطدام واضح في المواقف مع النظام المصري.

ومن الملاحظ أن عدداً من النظم العربية لا يزال مقتطعاً بجدوى تقديم المبادرات الدبلوماسية لإسرائيل؛ سواء لتخلصها من ورطة حرب غزة إلا خيرة، أو حتى لإعادة تسويق المبادرة

^{١٧} - المصدر نفسه.

^{١٨} - من الأمثلة الأخيرة في هذا الصدد قيام "شطاء سلام إسرائيليين" بإذن من الجيش الإسرائيلي، بدعة 37 طفلاً فلسطينياً من قدموا آباءهم في حرب غزة للقيام بجولة في إسرائيل والضفة الغربية المحتلة لمدة أسبوع . راجع: "حماس تمنع أطفالاً قدمو آباءهم في حرب غزة من زيارة إسرائيل" ، الموقع الإلكتروني لصحيفة الحياة 28/12/2014 . (تمت زيارته 6/1/2015). على الرابط :

<http://www.alhayat.com/Articles/6513688>

^{١٩} - لمزيد من التفاصيل حول الاستراتيجية الإسرائيلية في هذا الصدد، راجع : محسن عوض، الاستراتيجية الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية ، سلسلة الثقافة القومية (15)، 1988. وأيضاً: محسن عوض ومدوح سالم وأحمد عبيد، **مقاومة التطبيع: ثلاثة عاماً من المواجهة** ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.

العربية للسلام مرة أخرى^{٢٠}، بعد أن أفشلت حكومة نتنياهو عن سبق إصرار وترصد مساعي كيري على مدار تسعه أشهر كاملة (سبتمبر 2013 - أبريل 2014).

وليس بلا معنى في هذا السياق، أن يقوم رئيس الاستخبارات السعودي السابق تركي الفيصل بنشر مقالة في صحيفة هارتس الإسرائيلية يحث فيها إسرائيل ومواطنيها على تبني تلك المبادرة وتتسويقها بلغة تقترب من أطروحة شيمون بيريز عن الشرق الأوسط الجديد أوائل تسعينيات القرن العشرين، حيث أحالم السلام ولغته العاطفية، وعبارات من قبيل "السلام الذي يطمح إليه كل الناس الذين يرجون الخير"، "ولا يوجد أي شيء مستحيل مع وجود قدر من الإرادة الخيرة وبدعم من الولايات المتحدة والجامعة العربية"، فالعرب متمسكون بمبادرتهم وهي ما زالت على الطاولة أقوى مما كانت دائماً. تعالوا نحلم لحظة كيف سيبدو هذا البلد الذي جرب الحروب بعد اتفاق بين الشعبين. واسمحوا لي أن أحلم أيضاً. تخيلوا أن استطيع أن أركب طائرة في الرياض وأطير مباشرة إلى القدس، وأركب حافلة أو سيارة أجرة وأسافر إلى قبة الصخرة أو إلى المسجد الأقصى لأصلي صلاة الجمعة ولازور بعد ذلك حائط البراق وكنيسة القيامة. ثم أستطيع في الغد أن أزور قبر إبراهيم في مغارة الماكفيلا في الخليل إلا وهي حبرون، وقبور الأنبياء الآخرين عليهم السلام، وأستطيع أن أسافر من هناك وأزور كنيسة المهد في بيت لحم ثم أتابع فأزور أيضاً متحف المحرقة "ياد فاشيم"، كما زرت متحف الكارثة في واشنطن حينما كنت سفيراً هناك. ويا لها من لذة لا أدعو الفلسطينيين فقط بل الإسرائيليين الذين سألقاهم أيضاً ليأتوا لزيارتني في الرياض حيث يستطيعون التجول في بيت آبائي في الدرعية، التي تشبه معاناتها التي نالتها من قهر إبراهيم باشا، معاناة القدس على يد نبوخذ نصر والرومانيين. حاولوا فقط أن تخيلوا التطورات في مجالات التجارة والطب والعلم والثقافة بين الشعبين الإسرائيلي والعربي^{٢١}.

٢٠ - "السعودية ترحب بإعادة طرح مشروع إنهاء الاحتلال وتمسك بالمبادرة العربية" ، الشرق الأوسط 2015/1/20، العدد 13202. على الرابط:

<http://classic.aawsat.com/details.asp?section=4&article=802681&issueno=13202#.VL5sh5D9ldg>

٢١ - تركي الفيصل، "مبادرة السلام العربية أقوى مما كانت دائماً" ، هارتس 2014/7/8، مترجم في: القدس العربي 2014/7/9. على الرابط:

<http://www.alquds.co.uk/?p=190384>

خاتمة:

إن زيارة الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي إِياد مدنى بزيارة المسجد الأقصى تحت الاحتلال تثير كثيراً من علامات الاستفهام حول الطريقة التي تجري بها تصفية قضية فلسطين وقدسها ومسجدها الأقصى في ظل إجهاض الثورات العربية وانطلاق موجة الثورات المضادة.

ولا شك أن إعادة إطلاق الجدل حول زيارة المسجد الأقصى تحت الاحتلال، يُؤتى في سياق فلسطيني وإقليمي ودولي ، يوحي بأن بعض النظم العربية مقدمة على تنازلات قد تكون الأخطر في تاريخ قضية فلسطين. ولا شك أيضاً أن تصريحات إِياد مدنى تثير أسئلة من قبيل: أندعوا للتطبيع الديني المجاني مع إسرائيل بدلاً من دعم القدس وصمود المقدسيين؟ ولماذا قبل الذهاب للقدس بالآلاف، لماذا لا تعيد النظم العربية إعمار غزة أولاً؟ وإذا كان الحديث يدور عن توظيف الحركات الإسلامية للدين في السياسة، فماذا عن الديني والسياسي في زيارة الأقصى تحت حرب الاحتلال ، أليست دعوة إِياد مدنى المسلمين ليفعلوا مثله هو توظيف الديني في السياسي؟.

.2015/1/21

والله تعالى أعلى وأعلم